خولة بنت الأزور

للأستاذ عبد العزيز الرفاعي

المكتبة الصغيرة
خولة بنت الأزور
عبد العزيز الرفاعي

السيد أحمد مرسي

وردت في كتاب « فتوح الشام » للواقدي أخبار عن فتاة عربية ملكت زمام السيف والشعر فهي فارسة محاربة من طراز عجيب تشق الصفوف وتجندل الرجال وتهزم الجموع وتنقذ الأسرى وتقول الشعر رقيقا لينا ، حاربت في صفوف جيش خالد بن الوليد الى جوار أخيها ضرار بن الأزور في فتوحات الشام وشبهها الواقدي نفسه بخالد بن الوليد في الجسارة والاقدام . وكانت هذه الأخبار وما حوته بين طياتها من أشعار منسوبة الى البطلة مثار اهتمام الكتاب والمؤرخين المحدثين فاتخذوا من شخصيتها العجيبة نموذجا رائعا يضربونه مثلا رفيعا للشجاعة والتضحية مأخوذين بالبريق دون تمحيص لأصل القصة ، فنجد الأستاذ أحمد علي باكثير يتخذ من شخصية خولة بن الأزور وبطولاتها أهم عناصر ملحمته الرائعة « عمر بن الخطاب » وكذلك نرى أمثاله من كتاب التراجم والسير والاعلام ودوائر المعارف .

على أن أهم ما كتب عن خولة بنت الأزور مستندا الى « فتوح الشام » للواقدي هو ما ورد في كتاب « الدر المنثور في ذكر ربات الخدور » تأليف السيدة زينب فواز يوسف العاملي (١٢٧٦ هـ ـ ١٣٣٢ هـ) ـ (١٨٦٠ م ـ ١٩١٤ م) والمطبوع لأول مرة في مطبعة بولاق عام ١٣١٢ هـ ـ ويجزم الأستاذ الرفاعي أن كل ما جاء في كتابات المعاصرين عن خولة بنت الأزور انما استند الى هذا الكتاب اما نقلا مباشرا واما أخذا من مصادر نقلت عنه ·

ولكن لماذا هذا الجزم من جانب المؤلف ؟ ولماذا يتهم الكتاب بعدم التمحيص في صدق الأخبار التي وردت في الكتاب المنسوب للواقدي « فتوح الشام » ـ بل لماذا تشكك الرفاعي في وجود شخصية خولة بنت الأزور أصلا ؟

ان المؤلف يؤمن بأن تاريخنا يجب أن يكون مستندا على الحقائق الناصعة لا الأساطير وأن تكون مفاخرنا ثابتة واضحة كالشمس لا يرقى اليها شك وهو حين يبحث في تاريخ شخصية خولة بنت الأزور يستجمع أخبارها من المصادر التاريخية ـ وعلى الأخص القديمة ـ فيفاجأ بأنها جميعا ـ عدا الكتاب المنسوب للواقدي ـ خالية تماما من أي ذكر لهذه الشخصية ـ فكيف اذن تولدت هذه الشخصية وكيف تولد الشعر المنسوب اليها ؟ وكيف ينقض هذا الشعر ما ورد من أخبار هذه الشخصية ويهدمها من أساسها ؟

رجع المؤلف الى هذه الكتب :

الطبقات الكبرى لابن سعد ·

الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ·

سيرة النبي لابن هشام ·

تاريخ الطبري ·

البداية والنهاية لابن كثير ·

فوجدها كلها تهمل ذكر خولة بنت الأزور ولفت نظره أكثر وأكثر ان ابن سعد صاحب الطبقات الكبرى هو كاتب الواقدي وتلميذه وأخذ عنه علمه ورواياته ـ فلو كان قد عرف أن خولة بنت الأزور على هذا الجانب من البطولة وأن أستاذه الواقدي قد أفاض في الحديث عنها في كتابه « فتوح الشام » لما أهمل الاشارة اليها في طبقاته وقد ضمت من النساء من هن أقل شأنا وشهرة ·

ورجع كذلك الى المعاجم والقواميس مثل المحيط وتاج العروس ، والى كتب الأدب والشعر واللغة مثل الأغاني وبلاغات النساء لابن طيفور والشعر والشعراء لابن قتيبة وكتب الجاحظ على أساس أن بنت الأزور شاعرة صاحبة قصائد متعددة حسبما أورد الواقدي فلم يجد في أي مصدر من تلك المصادر ذكرا لها .

ثم بذل المؤلف جهدا جديدا في تلمس أخبارها في سيرة أخيها ضرار بن الأزور في كتب التراجم التي تترجم لضرار فخرج بنفس النتيجة .

فكيف اذن تهملها هذه المصادر الأمهات على ما استفاض من شهرتها ومن شعرها ومن بطولتها ومن صلتها بصحابي بطل هو ضرار بن الأزور ؟

طبيعي ــ لو كان لها وجود حقيقي أو على الأقل لو كان لها دور تاريخي ملحوظ ما أهملتها .

لم ير الأستاذ الرفاعي بدا من الرجوع الى المصدر الأصلي لهذه الأسطورة وهو الكتاب الوحيد الذي يضم نصوص قصة خولة بنت الأزور وأشعارها وهو كتاب فتوح الشام للواقدي والذي نقلت عنه حرفيا صاحبة الدر المنثور في ذكر ربات الخدور والذي نقل عنه بالتالي جميع الكتاب المحدثون فلاحظ الآتي :

١ ــ ان هذه النصوص تشتمل على أساليب القصص والحكايات التي وضعت لعامة الشعب لأغراض شتى وشاعت لدى الجماهير العربية منذ القرن الأول الهجري على تطور غاياتها وأساليبها ومواضيعها فقد كانت مثل هذه القصص تروى في البدء في المساجد ثم جرى تدوينها فيما بعد وشاع تداولها وحصل التزيد فيها وتطور أسلوبها ــ وآية ذلك ما لاحظه المؤلف من التهويل والتكرار والسجع وهي سمات الأدب الشعبي التي هبطت بمنزلة الكتاب الى مستوى قصص الزير سالم وحمزة البهلوان وعنترة بن شداد .

٢ ــ ان خولة بنت الأزور شبهت في حملاتها بخالد بن الوليد اذ يقول الواقدي « ما هذه الحملات الا لخالد » .

٣ ــ ان خولة بنت الأزور تقول في التحسر على أخيها ضرار « ليت شعري

ألحقت بأبيك المقتول بين يدي الرسول » وليس لهذا الخبر أي أصل تاريخي ·

٤ ـ انها حينما ضمت الى المأسورات في وقعة (صحورا) وخطبت النسوة وأرادت أن تستثير حماسهن خاطبتهن على اعتبارهن « بنات حمير وبقية تبع » ولا غرو فهي في الكتاب كندية وكندة قبيلة يمنية يصح أن يقال عن بناتها أنهن بنات حمير وبقية تبع ـ وهنا يأتي الوهم الكبير فان ضرار بن الأزور الصحابي صاحب خالد بن الوليد انما هو من بني أسد وبنو أسد قبيلة مضرية عدنانية فاذا كانت خولة هي بنت الأزور حقا فكيف يصح أن تكون كندية وأن تكون عصبتها في حمير وتبع ؟

٥ ـ ان الأبيات التي مطلعها « ألا مخبر بعد الفراق يخبرنا » تبدو على علاتها أرق من أن تكون شعر عصر صدر الاسلام الذي يلحق من حيث جزالته بشعر العصر الجاهلي ـ واذا كانت صادرة عن امرأة جعلها تتسم بالرقة فكيف يوصف شعرها بالجزالة والفخامة ؟

٦ ـ ان خولة كانت في مصر مع أخيها ضرار الذي وقع في الأسر في البهنسا بينما يد لالتاريخ الحقيقي لضرار أنه لم يتجاوز الشام فقد توفي في وقعة اجنادين في الشام في سنة ١٣ هـ كما جاء في البداية والنهاية لابن كثير أي أنه لم يذهب الى مصر ولم يشترك في فتوحاتها وقد اتفقت الروايات في المصادر الأخرى مع ابن كثير حول عدم توجه ضرار الى مصر ·

وأخيرا يخرج الأستاذ الرفاعي بنتيجة منطقية هي التشكيك في نسبة كتاب فتوح الشام الى علامة محدث اخباري وراوية وقاضي مثل الواقدي ـ وقد سبق الزركلي الى نفس النتيجة فقال في ترجمته للواقدي في الاعلام « وينسب اليه كتاب فتوح الشام وأكثره مما لا تصح نسبته اليه » واذا حامت الشكوك حول الكتاب فقد حامت كذلك حول روايته عن خولة بنت الأزور وسقطت بالتبعية جميع الأقوال التي استندت اليه سواء في كتاب « الدر المنثور » أو غيره مما نقل عنه الأمر الذي يجعل قصة خولة بنت الأزور أسطورة من الأساطير ·